الفصل الثامن:

كان الوالي قد سألني عن وجهتي بعد خروجي من دمشق، وعندما أخبرته أنني أريد الذهاب إلى بعلبك أجاب إنه سوف يرسل معي مجموعة من الحرس؛ لأنه لا يجوز أن تترك شخصية على جانب من الأهمية مثلي دون حراسة، وقد أجبت فوراً من أجل تجنب مزيد من المناقشة بأنني سوف أسافر في القطار، وحيث إنه لم يكن لدي رغبة حقيقية في أن أسافر بهذه الوسيلة المتقدمة فقد كان عليّ أن أبدأ سفري في البكور إذا كان عليّ أن أسافر وحيدة.

وغادرنا المدينة في صباح مشمس مشرق، حيث كان الطريق مزدحماً بعابري السبيل المبتهجين، وخيولنا تقاوم مكابحها بعد أسبوع من الراحة. ومررنا قرب منزل الأمير عمر في وادي بردى وشاهدنا ذلك الرجل النبيل يتمتع بالصباح المشرق على سطح بيته، وصاح من فوق سطحه يدعوني للدخول، ولكني أجبت إن لدي عملاً عاجلاً ورجوته أن يدعني أمضي في سبيلي.

أجاب: «مع السلامة، أرجو أن تأتي يوماً لنتخيل معاً».

قلت: «نرجو الله، الله يكافيك».

وبعد مسيرة ميل أو ميلين قدمنا إلى مفترق طرق، فغيرت طريقي وانطلقت باتجاه جبال لبنان الشرقية مباشرة من أجل تجنب لفت نظر الشخصيات الرسمية التي ستشرفني بدعوتها، وصعدنا فوق وادي بردى الجميل المزدان بأشجار المشمش (الذي لم يزهر بعد)، عابرين النهر فوق سوق

وادي بردى، ثم مضيق رائع ثم تابعنا بين الجبال المكسوة بالثلوج إلى الزبداني المشهورة بتفاحها.

٨١ ـ سوق وادي بردى

وهنا نصبنا مخيمًا منعزلاً في مرج أخضر بجانب نبع. كانت خواصر حرمون الثلجية تسد المشهد إلى جنوبنا، والقرية المبعثرة فوق منحدر الهضبة إلى شمالنا، ولا أحد في الزبداني سوف يعير انتباهاً لخيمتينا الصغيرتين.

في اليوم التالي عبرنا جبال لبنان الشرقية وسط رياح عليلة، كانت رحلة بديعة جداً فوق خيولنا بدون شك ولكنها رحلة طويلة استمرت ثماني ساعات وربع الساعة.

كان هناك نقوش في اللغة اللاتينية في أماكن متفرقة محفورة في الصخور على طول الوادي الذي ينحدر حتى يحفوفا في جنتا، أنا أتصور إننا كنا نسير في الطريق الروماني القديم ما بين دمشق وبعلبك. وسرنا الأميال الأخيرة الطويلة الجرداء تحت مطر غزير، رافقنا حتى بعلبك التي وصلناها مبللين، كان الجو عاصفاً على نحو لا يمكن معه التخييم، وكانت روحي تشمئز من فكرة المبيت في فندق. واقترح ميخائيل لحسن الحظ حلاً؛ قال: إنه يعرف امرأة مسيحية الأصل تعيش في مدخل القرية، والتي يمكن أن تؤوينا بدون شك. وقد حدث ما تنبأ به، فقد سُرّت المرأة المسيحية برؤيتنا، كان بيتها يتكون من غرفة نظيفة فارغة جُهزت بسرعة من أجل أثاث مخيمي، ورتب ميخائيل نفسه وجهاز طبخه في غرفة. وكان الهواء العاصف يفعل فعله في المصاريع، ولكن لم يسبب لنا أي أذى.

كان اسم مضيفتي قرنفلة، وقد كانت زوجة ليوسف الأواس الذي ذهب للارتزاق في أمريكا حيث ترغب أن تلحق به، وقد قضيت ساعة أو ساعتين معها ومع ابنها وابنتها وعدد قليل من الأقارب الذين جاؤوا للتمتع بقليل من السمر وقليل من الموسيقا جالبين معهم أعوادهم، وقد حدثوني أنهم قلقون جداً حول مستقبلهم.

إن معظم سكان بعلبك والمنطقة المحيطة بها ينتمون إلى طائفة إسلامية متعصبة تدعى المتاولة، الذين يتمتعون بسمعة خاصة جداً بتعصبهم وجهلهم، وهم عندما سمعوا بانتصار اليابانيين على الروس جاؤوا إلى جيرانهم المسيحيين وهزوا قبضاتهم في وجوههم قائلين:

«لقد انهزم المسيحيون هزيمة مُرة، ونحن بعد وقت قليل سوف نطردكم ونستولي على أملاككم». وتدخّل ميخائيل في الحديث قائلاً: إن الشيء نفسه حدث في القدس، قال: (أنا لا أعرف في الحقيقة أين الصدق). « فهناك أرسل المسلمون وفداً إلى المفتي وقالوا: إن الوقت قد حان لطرد المسيحيين، ولكن المفتي أجاب: إذا أثرتم اضطرابات فإن الدول الأوربية سوف تتدخل؛ لأن القدس هي سواد عيونهم» (هكذا أكد المفتي)، وسوف يأخذون كل البلد، وسوف يصبح حالنا أسوأ مما كان من قبل».

وحاولتُ طمأنة قرنفلة بالقول: إن من غير المحتمل أن يتعرض المسيحيون للاضطهاد في سوريا، فالبلد أصبحت معروفة جيداً، ويتردد عليها سواح كثيرون الذين لن يقصروا في إعلان ذلك على العالم. والحقيقة أن التدفق السنوي للسائحين أفضل ضمان لدوام استتباب النظام.

وقرنفلة الآن امرأة لبنانية، وقد سألتها لم لا تعود إلى قريتها في لبنان حيث تكون تحت حماية القوى الأوربية مباشرة وتتجنب الخطر؟ فقالت: «يا سيدة، البيت هنا لزوجي ولا أستطيع بيعه حتى يعود، كما لا أستطيع أن أتركه خالياً، وأكثر من ذلك فإن الحياة في جبل لبنان ليست مثل الحياة في السهل، وأنا التي تعودت على أشياء أخرى لا أستطيع تحمل الحياة هناك، ففي الجبل

ليس للناس من عمل إلا مراقبة جيرانهم، وإذا اتفق ولبست تنورة جديدة فإن القرية سوف تتهامس وتسخر منك وتقول: «ألم تروا الست؟».

انظري أنا سوف أريك ماذا تشبه الحياة في لبنان، أنا آكل في بعلبك لحمة كل يوم، أما في لبنان فيأكلونها مرة في الشهر، وهم يقسمون البصلة ثلاثة أقسام ليأكلوا في كل مساء قسماً من أجل أن يُنكّهوا البرغل، وأنا أضع حفنة من البصل في الطبق كل مساء. الحياة في لبنان موجعة».

الحياة في لبنان مليئة بالحرمان على نحو شديد بحيث إن كل من يستطيع أن يجمع بالتعاون مع أهله أجرة السفر إلى أمريكا، لن يتأخر في السفر. ثانياً: من المستحيل أن يجمع الإنسان المال الكافي لزراعة القمح أو التوت أو الكرمة. لا يوجد أي تقدم على الإطلاق (باستعمال التعبير السوري).

يشبه جبل لبنان زقاقاً محصوراً، وهو بدون ميناء على البحر وبدون تجارة. في الحقيقة إنك سوف تمشي هناك أميناً على حياتك، ولكن أي حياة هذه التي لا تقدم لإنسان إلا ثلث بصلة كل يوم على العشاء؟.

وكالعادة فإن الباب العالي لديه الكثير مما يستطيع تقديمه للقوى العظمى، لقد منحوا كل ما طلبوه. آه نعم، وبسرور، ولكن التنازلات التي بدا أنها تفتح الباب للتقدم قد أغلقت في الحقيقة البوابات إلى الأبد على أولئك الذين يفترض أن يستفيدوا منها.

ولم ينقطع المطر في اليوم التالي. واستقبلتُ ضابط الشرطة الذي اكتشفني بعد أن بحث عني طويلاً. لقد برهن على أنه رجل نبيل. كما قمت بزيارة عائلة برتغالية كبيرة تنزل في فندق مزعج قرب مأوانا، كان رب العائلة واسمه السيد لويس دوسومار مع زوجته وبناتهما وأحفادهما، وقد جاؤوا من

القدس إلى دمشق عن طريق جبل الدروز، وكنت قد سمعت عن وصولهم إلى السويداء عندما كنتُ في صلخد، وعجبتُ كيف استطاعوا أن يحصلوا على إذن بولوج ذاك الطريق، وكانت القصة غريبة وتعزز رصيد السيد دوسومار في الوقت الذي تبين مقدار رغبة الحكومة وحرصها على إبقاء الجبل بعيداً عن أعين السياح الفضولية. كانت العائلة البرتغالية قد قابلت السيد مارك سايكس في عمان وقد نصحهم بأن يغيروا طريقهم بحيث يمرون من قرية قنوات في جبل الدروز قائلاً: إنهم لن يجدوا صعوبة في الحصول على إذن بذلك. وسار السيد سومار ببراءة في ذاك الاتجاه، ولكنه عندما وصل إلى السويداء ـ التي كانت مركز الحكومة ـ أوقفه القائم مقام ورجاه بتهذيب ـ ولكن بحزم ـ أن يعود من حيث أتى، فأجاب بنفس الحزم إنه لن يفعل. وأرسل برقيات إلى قنصله في دمشق ووزيره المفوض في إستنبول، وحصل على هذا الأساس تبادل رسائل مثيرة، وكانت النتيجة أن سُمح له بمتابعة السفر إلى قنوات على أن يرافقه مئة شرطي كحرس.

وقال القائم مقام: إن المنطقة جد خطيرة مع أن تلك المنطقة ـ كما أعرفها أنا ـ تستطيع أن تسير بها المرأة دون حراسة، إلا من طفل درزي صغير، دون أن تخشى على نفسها شيئاً حتى ولو كان خرجها مملوءاً ذهباً. ولكن السيد سومار كان حصيفاً؛ فقد قال: إنه يرغب فعلاً بأن يرافقه مئة شرطي، ولكنه لن يدفع قرشاً واحداً لهم، وإزاء هذا الهجوم المعاكس غيَّر القائم مقام نغمته، وخفض عدد الحراس إلى عشرين.

وصل السيد سومار بحراستهم إلى قنوات بأمان، وهنأتُهم على عملهم الجريء كما هنأتُ نفسي لأخذي الإذن من فلاح العزو وليس من والي سوريا[1].

٨٢ ـ بعلبك

على الرغم من المطر لم يكن قضاء اليوم في بعلبك دون جدوى.. كان الألمان قد كشفوا منذ زيارتي السابقة معبد الشمس، وكشفوا مذابح كنيسة وينابيع وقطعاً من الزخارف وقواعد كنائس، كن جميعاً موضع اهتمام عميق. وأكثر من ذلك لقد كانت المجموعة الكبيرة من المعابد والأسوار المحيطة بها والواقعة بين سلستي لبنان الغربية والشرقية تعطي انطباعاً ليس له شبيه

(١) لا شك أن هذا البرتغالي جاسوس، شأنه شأن السيد سايكس الذي طلب منه السفر إلى قنوات، وهو ليس ساذجاً، كما تحاول أن توحي به المؤلفة. إن هؤلاء الجواسيس ومنهم المؤلفة كانوا يتذرعون للدولة العثمانية بحجة التنقيب عن الآثار أو غير ذلك من الحجج، ويستغلون ذلك من أجل دراسة الوضع الاجتماعي والاقتصادي والسياسي والطرق الواجب اتباعها لتمزيق الدولة العثمانية واقتسام البلاد فيما بينهم مستقبلاً. ورغم معرفة العثمانيين لنيَّات الدول الأوربية الخبيثة إلا أنهم لم يكونوا قادرين على منعها؛ بسبب ضعفهم وبنية الدولة النخرة. (المترجم)

سوى بمجوعة معبد اكروبول أثينا في اليونان الذي ليس له نظير، فتفاصيل وزخارف معبد بعلبك ليست جيدة مثل معابد أثينا، فالعظمة التي لا تجارى، وحصر هذه العظمة بين إبداعات المهندسين التي لا يمكن الوصول إليها، والموقع الرائع على قمة الهضبة المطلة على زرقة البحر وعلى خليج سالاميس لا يمكن منافسته. ولكن وبشكل عام إن الأثر الذي تتركه آثار بعلبك في النفس يقترب من أثرها أكثر من أي مجموعة أبنية أثرية أخرى وهي تبعث بالنفس، مصادر لا تنتهي للتأمل والتفكير بأولئك الذين شغلوا أنفسهم بالربط بين العنصرين الإغريقي والآسيوي، الذي أبدعها وزخرف مواقع أبوابها وعتباتها ورؤوس أعمدتها بزخارف لا تنتهي في تنوعها وأسلوب تنفيذها البديع.

وبالنسبة لعالم الآثار إما صاف أو غير صاف، وتهبط كل أعمال الخيال الإنساني في مكانها المشار إليه في تاريخ الفن مشيرة ومنيرة فهمه لها. وهو سعيد على نحو مزدوج، وذلك أنه عندما يكون الناتج عن أعماله جميلاً يعود مفعماً بالشكر.. ولكن أيّا كانت النتيجة فمن المؤكد أنها سوف تزوده بشيء جديد أو برباط جديد بين هذا الفن وذاك، أو تنقله درجة أعلى في سلم التاريخ. وهو على هذا حريٌّ بأن يكون راضياً جداً عن الشيء الذي يراه، وفوق كل ذلك هو لن يقول: «واأسفاه.. واأسفاه.. هذه الكلاب السورية! لقد كان فيدياس سيعمل كذا وكذا». وذلك أنه سوف يكون سعيداً بملاحظة محاولة جديدة على طريق المساحي الغنية ونفساً غضاً جديداً يحرك أوراق العرائش الشوكية الزخرفية، وحلية العنب المزخرفة على تيجان الأعمدة والأفاريز.

ترافق خروجنا من بعلبك بحدث مؤسف ـ لقد اكتشفت فقدان كلبي كورت. وهو على خلاف معظم الكلاب السورية الشاردة، ذو مزاج ودود جداً،

كما أنه نَهِم وشَرِه (وهو في هذه النقطة لا يختلف عن فصيلته نصف الجائعة) وكان الاحتمال أن يكون قد أُغري بعظمة وسحب بعيداً ثم حبس حتى نذهب في طريقنا بعيداً عن القرية. وانطلق حبيب عبر القرية في اتجاه وانطلق

٨٣ ـ فناء القصر الكبير في بعلبك

ميخائيل باتجاه آخر، في حين حاول ضابط الشرطة الذي ظهر في هذا المشهد المثير للقلق أن يضع بلسماً على مشاعري الجريحة. وبعد عدة دقائق ظهر حبيب مع كورت الذي كان يهز ذنبه خلفه وبرقبته سلسلة. وأوضح حبيب لاهثاً أنه وجده في بيت رجل فكّر بسرقته وربطه بعد أن وضع جنزيراً في رقبته، وعندما سمع كورت صوتي نبح، ودخلتُ إلى حوش المنزل فشاهدته، وطلب صاحب الجنزير جنزيره، فرفضت بالله أن أعطيه له، ورميته أرضاً بدلاً من ذلك وضربته به، الله يلعنه متوالي حرامي وهكذا تركته.

وهكذا كنت مسرورة لأسجل بأن المتاولة طائفة غير شريفة كما تقول عنهم الشائعات، ولكن مكائدهم لم تستطع شيئاً أمام يقظة المسيحيين.[1]

وهبطنا سائرين في الوادي الموحش جداً بين سلسلتي جبال لبنان الشرقية والغربية، وقد كان يمكن أن أسافر بالقطار إلى حمص وأن أتابع بعد ذلك إلى حمّاة، ولكني فضّلتُ أن أسير من مكان إلى آخر بين جنبات الوادي حيث ما ذهب بي الخيال، وأن أزور الأماكن ذات الأهمية التي تستحق المشاهدة في المنطقة، وهذا لا يمكن أن يتم إلا على ظهر الجواد. كنت أجهل كل المناطق السورية الواقعة إلى الشمال من بعلبك، كما أنها علامة بارزة أيضاً للدلالة على وصولنا إلى حدود «خريطة اكتشاف فلسطين».

وقد لجأت الآن إلى خريطة كيبرت الصغيرة، ولكن الرائعة التي سبق ونقلتها من كتاب اوبن هايم الذي تركته في صاله في جبل الدروز، ولا يوجد خريطة أخرى مقنعة على نحو كاف حتى خط يصل إلى ثلاثين ميلاً جنوبي حلب، حيث تبتدئ خرائط كيبرت قياس ١ / ٤٠٠,٠٠٠ وعندما يتم طبع المعجم الجغرافي الأميركي فإني آمل أن يتم استكمال النواقص.

بعد أربع ساعات ونصف وصلنا إلى اللبوه حيث تنفجر المنابع الرئيسية لنهر العاصي من باطن الأرض في عدة ينابيع رائعة المنظر. وهنا أدركنا دركيان كانا قد أُرسلا خلفنا من قبل القائم مقام وسألاني بأدب فيما إذا كنت أرغب بحراسة، وقد أعدتُ أحد الدركيين واستبقيت الآخر لئلّا أجرح مشاعر القائم مقام، وكان اسم هذا الأخير درويش، وكان متعاونًا ودمثاً شأنه في ذلك

(١) حكمت المؤلفة أن المتاوله طائفة من اللصوص من خلال حادثة شخصية. تُرى ما حكم الإنسان على القراصنة الإنكليز وعلى الشعب الإنكليزي ككل من خلالهم؟. (المترجم)

شأن كل من أتى بعده من حراسنا أو مرافقينا حتى وضعت رجلي في القطار في قوفية، وقد أضاف بعضهم الكثير من المتعة للرحلة قاصاً لي العديد من الحكايا عن تجاربهم ومغامراتهم أثناء ركوبنا خيولنا معاً ساعة بعد ساعة.

٨٤ ـ أعمدة معبد الشمس في بعلبك

كانوا يتمتعون بالشظف في الحاميات العسكرية والقلاع وهو ما كانت تقدمه لهم، كما كانوا يبتهجون بالمجيدي[1] اليومي الذي أمنحه لهم، وهو أكثر بكثير من الراتب الذي يتقاضوه من الحكومة، كما كنت أعطيهم مكافأة قليلة عند انتهاء مهمتهم، وكانوا يأكلون ويُطعِمون خيولهم على حساب مؤن الفلاحين وحبوبهم التي كانت كما أعتقد بالقوة، وهي طريقة من الاغتصاب الوظيفي، لا يملك الرحالة أي وسيلة لمنعه.

يوجد في اللبوه خرائب معبد بُني بحجارة ضخمة على نمط آثار بعلبك؛ منصة مكونة من أربعة ممرات ضخمة من الحجارة متوّجة بحلى معمارية بسيطة، وببقايا وجه مفلطح. والقرية يملكها رجل متوالي غني اسمه أسعد بك، وهو أخ لدكتور من نوع خاص اسمه حيدر، المشهور كرجل من أهل الله في شمال سوريا، وأنا لم أذهب إلى دمشق دون أن أقابله، ولم أقابله إلا وشعرت بالرضا، وذلك أنه مطّلع جيداً على الأدب العربي، وذكي على نحو متميز. وقد تعاقد في الفترة الأخيرة على عمل في سكة حديد الحجاز، وهو كما أعلم النموذج الوحيد من طائفته الذي تلقى ثقافة عالية وتبوّأ مركزاً ممتازاً.

وخيّمنا عند رأس بعلبك بجانب نبع رائع في ممر ضيق بين التلال الشرقية الجرداء يبعد عن اللبوه حوالي ساعة ونصف الساعة، ولم يعد الصقيع يقرصنا والحمد لله ولكن الطقس مازال بارداً، ولكن عندما استيقظنا عند الفجر كان المطر المتجمد يضرب جدران الخيم، وركبنا طيلة النهار في طقس عاصف قاس، كنا في الثامن من آذار والربيع يسافر ببطء في شمال

(١) عملة في العهد العثماني صُكّت في عهد السلطان عبد الحميد في القرن التاسع عشر، وهو يعادل حسب رأي المؤلفة في ذلك الوقت أربع شلنات إنكليزية.

سوريا، وأرسلت مخيمي في الطريق المستقيم، وركبت مع درويش إلى أثر يقع على بعض المرتفعات في منتصف وادي العاصي، والذي يمكن رؤيته في ذلك الفسيح المنعزل من الأرض من مسافة يوم كامل في كلا الجانبين، كان برجاً طويلاً بني بحجارة ضخمة تُوّج برأس هرمي، وزين ببروزات من الجدران وطنف خشن ونقش منخفض بارز يصور مناظر صيد وصور معارك حربية، ويدعوه السوريون قاموع هرمول على اسم القرية القريبة منه.

ويقول العلماء: إنه ذكرى لمعركة كبيرة من العهد الروماني، ولكن لا يوجد نص مكتوب يبين صحة أو خطأ زعمهم، وهو يقع على بُعد ساعتين من رأس بعلبك، وركبنا ـ تضربنا الرياح الغاضبة بعنف شديد ساعة ونصفاً أخرى ـ نحو سلسلة من التلال تحمي فتحات تهوية قناة ماء، وهي كلمة عربية قد تكون من أصل فارسي، والعكس. وبعد ساعتين ونصف أخرى وصلنا إلى القصير وتأخرت البغال عنّا ربع ساعة، ونصبنا خيامنا بصعوبة بجانب المقبرة خارج القرية الطينية البشعة، وسكنت الرياح بعد غروب الشمس وخيم سلام مادي ومعنوي على مخيمنا، وحتى مزاج ميخائيل الظريف الطيب الباحث عن الفكاهة قد أصابه نوع من الهمود تأثراً بالجو العام، ولكن حبيباً جاء وهو يبتسم كالعادة.

وأنا الآن سعيدة بأن أتذكر أنني رغم تعكر مزاجي تحت ثقل العاصفة إلا أنني استطعت أن أحتفظ بهدوء الفلاسفة. ولم يكن محمد الدرزي معنا؛ لأننا خلفناه وراءنا في دمشق. كانت الصعوبات والمشاجرات تنبثق باستمرار بينه وبين الآخرين سواء لأسباب تعود إلى أخطائه أو تعود لتآمر الآخرين عليه، وكان لابد من التضحية بأحد أفراد الطاقم حفاظاً على السلام في القافلة،

وكان عقدي معه ينتهي في دمشق وافترقنا على أحسن حال، وخلفه أناس آخرون مستأجرون عاديون غير متميزين حسب الحاجة واحداً بعد الآخر.

كان وادي العاصي سابقاً موطناً لمضارب البدو، ولا يزال عدد محدود من مشايخ الحسنة يخيمون فيه في الفصول الجافة، إضافة إلى بعض مشايخ الرولة من عنزة، ولكن كبد العشيرتين قد طرد بعيداً بسبب تحول المراعي إلى أرض مزروعة، ويحمل قاموع هامول سجلهم على شكل وسم العشيرة القديم. وقد كان مما يلفت النظر أكثر أن نتذكر أننا نقف الآن في القواعد الرئيسية الجنوبية للحثيين أيّا كانوا. وأكثر النقوش التي اكتشفت من آثارهم في حماة

٨٥ ـ معبد جوبيتر في بعلبك

لا تزال غامضة لم تحل كتابتها بعد، وهي تقبع الآن في متحف إستنبول وقد حيّرت كل علماء الآثار.

وسكان القصير حالياً يتكونون جزئياً من المسيحيين وعدد محدود من طائفة تدعى النصيرية (وهي طائفة لا يعتبرها المسلمون مسلمة تماماً).

وكذلك فهم يحاولون شأنهم شأن الفرق الدينية الصغيرة أن يبعدوا الأمور التي تظهر خلافهم مع عقيدة الطائفة المسيطرة، فهم يبقون عقائد مذهبهم سرية ما أمكن، ولكن داسو استطاع بصعوبة الدخول إلى قلب عقيدتهم ووجدها ممتلئة ببقايا العقائد الفينيقية.

وقد بقيت هذه العقائد الفينيقية سليمة لم تمس؛ بسبب عزلة هذه الطائفة في معاقلها الجبلية بعيداً عن المؤثرات الخارجية، وقد حافظوا على الطقوس الدينية السامية القديمة، وقد شغلوا موضعاً شريفاً متميزاً في أعين حاملي الثقافة السورية باعتبارهم ينحدرون مباشرة من أسلافهم الوثنيين في الوقت الذي بقي أكثرهم جاهلاً لأصولهم القديمة، ويروي سكان المنطقة أحاديث سقيمة حول معتقدهم متبعين العادة الثابتة في همسات القيل والقال فيما يتعلق بالأمور التي لا يتاح لهم فهمها وقد أُخبرتُ بأن الإشارات والعلامات المشاهدة من سلوك هذه الطائفة تجعل كل شيء مرغوب، وقد أبعد العالم داسو الغموض الذي كان يغلف عقائدهم. وحسب تجربتي من سلوكهم تجاه الغرباء قادتني لتبني موقف كريم محايد.

وقد قضيت خمسة أيام في الجبال غربي حمص، وأسبوعاً قرب إنطاكية، وهي المقاطعة الرئيسية التي يتواجدون فيها، ولم أجد أي سبب يدعوني للشكوى منهم. لم يكن كلبي كوت سعيداً جداً مع المجموعة التي وجد نفسه بينها في القصير، فقد استمر بالنباح طيلة الليل، حتى كدت أرغب لو بقي في حوش المتوالي.

كان الطقس رائعاً في اليوم التالي، وقد عملت جولة طويلة مع ميخائيل من أجل احتمال زيارة تل النبي مندو في موقع قادس على العاصي، وهي

العاصمة الجنوبية للحثيين، ويجب أن تكون هذه المدينة في أيامها جميلة. كان التل الذي بنيت فوقه يطل على سهل فسيح مزروع بالقمح، وإلى الجنوب منها يقع نهر العاصي الذي يجري بين سلسلتي جبال لبنان الشرقية والغربية، وإلى الغرب منها تقع جبال النصيرية التي تحميها من البحر، وبين سلسلة جبال لبنان وجبال النصيرية فرجة منخفضة يسلكها التجار والسلع التجارية إلى الساحل، وإلى الشمال تقع سهول الداخل السورية الممتدة حتى الأفق، وإلى الشرق تقع البادية السورية الممتدة حتى تدمر، وتغتسل أقدام التل بمياه العاصي الفتي الشغوف المتمرد، وعلى بعد ستة أميال منه تقع بحيرة حمص (قطينة)، ويتم الوصول إلى التل عبر مروج من العشب.

كما أن ثمة طاحونةً مائية تدور بمرح بين أشجار الصفصاف، ولا شك أن المنطقة مازالت مسكونة منذ أيام الحثيين وحتى الآن؛ لأن التاريخ يتحدث عن مدينة سلوقية تدعى لودوشيا العاصي. كما أن هناك آثاراً لبلدة مسيحية. وقد بنى كل جيل خلف فوق رماد من سبقه مما أدى إلى ارتفاع التل أكثر فأكثر، وأصبحت آثار من سكنوه أغنى فأغنى بدون ريب، ولكن من غير الممكن التنقيب به؛ بسبب البيوت الطينية التي تشبه خلايا النحل التي خلفت مدينتنا لودوشيا وقادس. والجبانة الصغيرة الواقعة في الجهة الشمالية من القرية، والتي يجب أن تبقى حسب رأي المسلمين بعيدة عن أي إساءة حتى ينفخ جبرائيل في الصور ليبعث من في القبور[1]. وقد لاحظتُ شظايا أعمدة

(١) لا يوجد قدسية للمقابر عند المسلمين؛ لأن الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ يقول: «خير القبور الدوارس». إن تقديس المقابر الموجود الآن عند بعض المسلمين أتى تقليداً للمسيحيين الذين يهتمون كثيراً بمقابرهم. أما البعث فإن المَلَك الموكل به هو إسرافيل وليس جبرائيل كما قالت المؤلفة. (المترجم)

٨٦ ـ تيجان في معبد جوبر في بعلبك

وتيجاناً عالية جداً بين البيوت، ولكن اهتمامي عندما كنت واقفة فوق قمة التل كان منصبّاً بشكل رئيسي حول تصوري للمعركة التي جرت في قادس بين الملك الحثي والفرعون المصري الذي كان يعاصره، والتي سجلت وقائعها على نُصب في اللغة الهيروغليفية في مصر، وعلى مسافة ربع ساعة من السير إلى الشمال من تل النبي مندو كان ثمة تل ترابي آخر يقول العرب إنه مرسى سفينة

نوح وفي رأي علماء الآثار إنه قلعة آشورية. وعلى كل طرف أن يدعم وجهة نظره على مسؤوليته الخاصة.

كان مرتفعاً من الأرض مربع الجوانب، وقد وجهت جوانبه بدقة حسب اتجاه البوصلة، يرتفع عن السهل المحيط به ما بين أربعين إلى خمسين قدماً ومحاط بخندق ما تزال زواياه حادة حتى الآن.

وقد صعدنا بخيولنا إلى قمته التي لاحظنا أنها منبسطة وصلبة التربة تبلغ مساحتها حوالي ثمن ميل مربع، وكانت زواياها الأربعة مرتفعة قليلاً كما لو كانت بقايا أبراج، وكانت الأرض وبقايا السوار مغطاة كلها بقمح الربيع. ترى من بناه؟ بطريرك أو آشوري، ويجب أن يكون قد تعب في بنائه.

ولكن وفيما عدا خنادق محدودة جداً قد تم حفرها عبره فإن الهدف الذي وجه سير الأعمال يبقى غير محدد. وهبطنا بعد ذلك إلى البحيرة وتغدينا بجانب مائها المتموج على شاطئ من المحار النظيف، وكان ثمة تلان قريبان من الشط.

وآخر على بعد ميل أو ميلين خارج حمص. على حين أن قلعة حمص قد بنيت فوق رابع، وكل هذه التلال تبدو صناعية وربما كانت تحتوي على آثار لمدن كانت شقيقة لقادس، ويجب أن يكون السهل الخصيب الواقع إلى الشرق من نهر العاصي، والذي كان دائماً قادراً على إعالة أعداد كبيرة من البشر، كان موطناً بشكل دائم لأعداد كبيرة من السكان، ربما كان عددهم في العهد الحثي أكبر من عددهم الآن. واستمر ركوب ذلك اليوم من الساعة التاسعة والنصف حتى الساعة الثانية بعد الظهر بما في ذلك ثلاثة أرباع الساعة في تل النبي مندو ونصف ساعة على شاطئ البحيرة.

٨٧ ـ حوض في ساحة القصر الكبير في بعلبك

دخلنا حمص عبر المقابر، وهذه المقبرة التي ربما زاد طولها على ربع ميل من القبور ليست مَعْلماً خاصاً بحمص، وإنما هو حالة عامة في كل المدن الشرقية، تحرس كل مدينة ككتائب من الموتى، وتتموج حياتها من وإلى عبر أفواج من شواهد القبور الحجرية المعممة. وقد اتفق وكان دخولنا مدينة حمص في يوم خميس، ويوم الخميس هو يوم جميع أرواح الميتين في العالم المحمدي [١]. مجموعات من النساء المحجبات يضعن الزهور على قبور موتاهن، أو يجلسْن حولها منغمسين في أحاديث مفعمة بالحيوية والنشاط.

(١) يحب المستشرقون والأوربيون أو الغربيون عموماً أن يسموا المسلمين باسم المحمديين مثلما يدعى النصارى بالمسيحيين وهذا خطأ كبير لأن ثمة فارق كبير بين النسبتين فالمسيحيين يعبدون السيد المسيح وهو مساو للأب في الجوهر وهو مع الأب والروح القدس يشكلون إلاهاً واحداً. على حين أن المسلمين موحدون لا يعبدون محمداً، وإنما يعدّونه نبياً مثل غيره من الأنبياء والرسل، وهم جميعاً بشر يتزوجون ويأكلون الطعام ويمشون في الأسواق. (المترجم)

وتعُدّ المقابر الأماكن المفضلة للنساء الشرقيات للتنزه والمتعة، وكذلك مكاناً مناسباً للعب الأطفال، ولا تترافق مع الغم الذي يغلف المكان ليترك أثره في بهجة الزائرين.

ونصبت مخيمي على طرف المدينة بمكان مفروش بالعشب الأخضر تحت خرائب حظائر عسكرية بناها إبراهيم باشا، وتم هدمها مباشرة بعد موته [1] من قبل السوريين الذي كانوا يرغبون بإزالة أي أثر يذكرهم باحتلاله. كان قد تم تجهيز كل شيء لي، الماء المغلي من أجل الشاي ورسالة من القائم مقام تؤكد لي أن كل ما أرغب فيه سوف يحظى باهتمام فوري. وعلى الرغم من كل شيء لم أحب مدينة حمص ولن أخيم فيها مرة أخرى باختياري، وهذا القرار يعود لسلوك سكانها الذي سوف أصفه فيما يلي:

كان تصرف القائم مقام ليس غير عاديّ. وقد زرته بعد شرب الشاي، ووجدته تركياً مقبولاً، يُحسن قليلاً من العربية، دمث الحديث.

وكان هناك عدة أشخاص بين الحضور، المفتي المعمم وشيوخ وقورون.

ودار حديث ممتع حول فنجان القهوة، وعندما أردت الذهاب قدم إلي القائم مقام جندياً لحراستي أثناء تجوالي في المدينة، ولكني رفضت قائلة: إنني ليس لدي ما أخاف من أجله إضافة إلى أنني أتكلم اللغة العربية. وكنت على خطأ، فمعرفة اللغة العربية ليست كافية ليتمكن الغريب من التعبير عن رأيه عند أهالي حمص. ما إن مشيت قليلاً في السوق حتى بدأت المضايقة،

(١) لقد احتل الجيش المصري بقيادة إبراهيم باشا سوريا عام ١٨٣٠ وخرج منها عام ١٨٤٠، ومات إبراهيم باشا في مصر عام ١٨٤٨ أي بعد خروجه من سوريا بثماني سنوات. ولعل المؤلفة تريد أن تقول أن هذه المنشآت العسكرية قد هدمت بعد خروج إبراهيم باشا من سوريا وهو أقرب إلى المنطق. (المترجم)

ولعلي كنت كشخصية المهرج في الرواية الهزلية ـ (بيب بيبر اوف هاملين) ـ بالنسبة للأطفال الصغار الذين كانوا يسيرون ورائي زرافات أين ما سرت، وقد تحملت فضولهم لبعض الوقت، ثم أخذت أناشدهم الابتعاد عني، ولما لم أستفد شيئاً طلبت المساعدة من أصحاب الحوانيت في السوق.

وقد ساعد هذا لبعض الوقت، ولكنني عندما حاولت غافلة أن أدخل المسجد لم يتبعني الأولاد الصغار فقط، وإنما كل الرجال في حمص ـ أو هكذا بدا الأمر لخيالي المحموم ـ تجمعوا خلفي. لم يكونوا منزعجين، لم يكن لديهم رغبة لمنعي، بل على العكس كانوا شغوفين بأن أدخل لوقت طويل ليصبح لديهم وقت أطول لمراقبتي.

ولكن الأمر كان أكبر من أستطيع التحمل، ولذلك فقد هربت راجعة إلى مخيمي، تتبعني مئتا زوج من العيون الفضولية، وأرسلتُ مباشرة أستدعي شرطياً. وكنت عاقلة في اليوم التالي حيث اصطحبت معي شرطياً منذ البداية، وصعدنا إلى قمة القلعة لنلقي نظرة شاملة على المدينة.

وعلى الرغم من أن المدينة لا تتمتع بجمال خاص إلا أن لها شخصيتها المتميزة، إنها مبنية من الحجارة البركانية، وقد بنيت بيوتها الكبيرة محاطة بفناء، وقد زينت جدرانها بأسلوب جميل حيث وضعت الحجارة الكلسية البيضاء في صفوف مستقيمة بين صفوف الحجارة السوداء على نحو متعاقب من السواد والبياض مثل واجهة كاتدرائية سينا. ويذهب الذهن أكثر إلى إيطاليا عندما يشاهَد أسلوب بناء المآذن المكونة من أبراج مربعة طويلة في كل أنحاء العالم مثل أبراج سان كيميكنانو (Gimignano)، فيما عدا تلك المبنية في حمص التي تُتوّج بقبة جميلة جداً ومؤثرة. ولاحظت أن كل الآثار الباقية في

القلعة إسلامية الأصل. وكذلك الأسوار المحيطة بالمدينة فيما عدا جهة واحدة إلى الشرق حيث بدا وكأن السور العربي قد بني فوق قواعد أقدم، ولم أشاهد أي أثر لبناء يعود لما قبل العهد الإسلامي سوى خربة من القرميد خارج بوابة طرابلس التي تعود بشكل مؤكد إلى العهد الروماني، وهي التذكار الوحيد لمدينة إيميسا الرومانية، والقلعة هي أيضاً خارج المدينة، وعندما أنهيت استطلاعي العام دخلنا من البوابة الغربية، ومضينا نبحث عن الأماكن التي تستحق المشاهدة، وهذه العملية تحتاج إلى وقت؛ وذلك لأنها كانت تُقطع دائماً بدعوات قوية من أجل قبول الضيافة وشرب فنجان قهوة.

٨٨ ـ قطعة من إفريز سطح معمد في بعلبك

ومررنا بجامع التركمان حيث كان هناك نقشان إغريقيان على حجرين استُعْملا في بناء المئذنة. كما رأينا ناووساً حجرياً نقش عليه أشكال رؤوس ثيران، وأكاليل زهور قد استُعْمل كحوض ماء. وكان من رأي الشرطي أن أذهب

لأقدم احتراماتي لأسقف كنيسة الروم الأرثوذكس، فذهبت إلى قصره، ولكنني اكتشفت أنني قد بكرت جداً في ذهابي لرؤية سعادته.

وقد استضافوني على أي حال وقدموا لي مربى وقهوة وماء، وأصغيتُ لتفجّع أمين سر الأسقف على الانتصار الياباني، وقد استمرت كنيسة الروم الأرثوذكس طيلة فترة الحرب بإقامة صلوات التوبة عندما كانوا يسمعون بهزائم الروس، ويدعون العلي القدير أن يصفح عن أعداء المسيحية. وقد انتدب أمين السر خادماً من أجل أن يريني كنيسة مار الياس الصغيرة التي تحتوي على ناووس رخامي رائع نُقِش على هيكله صُلبان لاتينية وصُلبان إغريقية على غطائه، وهو إضافة متأخرة ـ كما أتصور ـ لقبر تقليدي.

وقابلتُ خارج الكنيسة رجلاً يدعى عبد الوهاب بك كنت قد رأيته سابقاً عند زيارتي لدار الحكومة تلبية لدعوة القائم مقام، فدعاني إلى منزله. وهو مَثَلٌ لهندسة البيوت الحمصية التقليدية، وقد زينت ساحة الحريم على نحو جميل بالحجارة الكلسية البيضاء والحجارة البازلتية. وعندما خرجت من منزل عبد الوهاب بك قال الشرطي ـ الذي التقط المشاهد التي أرغب بمشاهدتها ـ إنه سوف يأخذني إلى منزل حسن بك النئي الذي يعتبر الأقدم في حمص. وبينما كنت أَمرُّ في الشوارع الضيقة ـ ولكن النظيفة على نحو ملفت للنظر ـ لاحظت أنه ربما يوجد في كل بيت نول نسيج حيث ينسج النساجون قماش الحرير المقلم الذي تشتهر به حمص، على حين كانت معظم الشوارع مزدانة بالخيوط الحريرية. وقال الشرطي: إن العمال يأخذون أجرهم على القطعة ويربحون من سبعة إلى اثني عشر قرشاً في اليوم (من شلن إلى شلنين)، وهذا يُعد أجراً عالياً في الشرق. وأضاف إن الحياة رخيصة؛ إن

الرجل الفقير يستطيع أن يستأجر بيته المكون من غرفة واحدة بمئة قرش في السنة، ويطعم أسرته لقاء ثلاثين إلى أربعين قرشاً في الأسبوع، وحتى أقل من ذلك إذا لم يكن لديه عدد كبير من الأولاد.

٨٩ ـ باسيليكة قسطنطين في بعلبك

كان حسن بك النئي رجلاً أحمر الشعر أحمر اللحية بملامح وجه قاس يشبه وجوه سكان الأراضي المنخفضة في إسكتلندا، ولم يكن مسروراً بالمرة لرؤيتي، ولكنه أمام طلب الشرطي خرج متمهلاً من مضافة حيِّه حيث كان يشرب فنجان قهوة صباح الجمعة مع أصدقائه، وأخذني عبر الشارع إلى جناح حريمه، وتركني مع جنسي من النساء اللواتي كن لطيفات بمقدار ما كان فظّاً، وكن مسرورات جداً بالفعل بأن يكون لديهن زائرة؛ لأن حسن بك كان رجلاً صارماً، ولم يكن يسمح لزوجته ولا لأمّه ولا لأي امرأة في كنفه أن تمد أنفها خارج أبواب البيت، ولا حتى بالذهاب إلى المقبرة، أو أن يركبن عربة

ويذهبن إلى المرج بجانب العاصي في عصر يوم صيف جميل، كان جناح الحريم بيتاً عربياً جميلاً جداً من طراز البيوت الدمشقية.

كان ثمة قباب مجصصة فوق الغرف وفوق الليوان، ولكن الجص تشظى قطعاً صغيرة، كما تقوضت الأرض والدرج تحت الأقدام التي تدوسهما، كما بني في أحد الجدران عمود رخامي عليه تاج زُيِّن بأوراق نبات شائك. كما كان ثمة تاج عمود رخامي على أرض الإيوان أو الليوان، بسيطٌ في طرازه، ولكنه من نوع جيد، وقد حول إلى حوض ماء، وقد يكون استُعْمل لفترةٍ ما كجرن للمعمودية قبل أن يستولي العرب على حمص. وبعدُ أخذت الأبنية الرومانية الأكثر قدماً تتساقط وتستعمل مواد بنائها لأغراض أخرى.

ومررت وأنا في طريقي إلى مخيمي بمئذنة مربعة جميلة بنيت بصفوف من الحجر الأبيض والأسود، والمسجد أو الكنيسة المسيحية التي ينتمي إليها البرج قد تهدمت. وسمعته «قال الشرطي» إنه أقدم برج في المدينة، والمسجد في مدخل السوق كان قطعاً كنيسة بدون أي ميزة معمارية.

٩٠ ـ حجر كبير في مقلع الحجارة في بعلبك

(١) كتبت المؤلفة بدلاً من الشكل الحسن المرأة الجميلة خلافاً لشطر بيت الشعر العربي الذي أوردته أنا (المترجم)

لم يعد هناك ما هو جدير بالمشاهدة في حمص، وحيث كان عصر اليوم جميلاً فقد نزلت باتجاه المرج على شط العاصي، وهو المنتجع المنتقى لكل راغبي التنزه في الربيع والصيف. ويوجد مجرى العاصي على بعد ميل إلى الجنوب الغربي من المدينة. وإمداد الماء سيئ وغير كاف حيث يأتي من قناة تبتدئ من الجهة الشمالية لبحيرة قطينة. ومرج العاصي نموذج للمكان الجميل الذي يتمتع به الشرقيون سواء أكانوا تركاً أو سوريين أو فُرْساً ويقضون فيه أيام عُطلهم. ويقول المثل العربي: تتطلب المتعة ثلاثة أمور الماء والخضرة والشكل الحسن [١]. وسار نهر العاصي برشاقة بين المروج مرصعاً بزهور الربيع حيث السيدات المسيحيات المهملات في معظمهن الحجاب، وقد ترجلن عن بغالهن، يجلسن تحت أشجار الصفصاف، يتلمسن أول أنفاس الربيع، ويدير النهر ناعورة كبيرة فارسية الأصل تملأ الجو بترنيمها العذب [٢]. وقد نصب قهواتي مجمرته على طرف الطريق، كما نشر بائع حلويات بضاعته بجانب النهر، وعلى امتداد الأرض المعشبة العريضة كان ثمة عدد قليل من الشباب المرح يهدبون ويدورون بخيولهم العربية. إن الشرق يقضي عطلته بطريقة ممتعة وبسيطة متمتعاً بالشمس اللذيذة.

كرّست البقية الباقية من عصر اليوم للأمور الاجتماعية، وبالمحاولات غير المجدية للهرب من فضول سكان البلدة.

لقد كان عصر يوم جمعة، وكان أفضل طريقة لقضاء وقتهم هو التجمع بأعداد وصلت إلى عدة مئات حول خيامي، ومراقبة كل حركة أو تصرف من

(١) كتبت المؤلفة بدلاً من الشكل الحسن، المرآة الجميلة خلافاً لشطر بيت الشعر العربي الذي أوردته أنا (المترجم).

(٢) ليست الناعورة ابتكار فارسي، وإنما هي ابتكار آراميي وادي العاصي.

أي فرد من أفراد مخيمي، كان الرجال سيئين بما يكفي، وكانت النساء أسوأ، أما الأطفال فكانوا أسوأ من الجميع. ولم يكن هناك شيء يستطيع إبعادهم، وكانت الأمور قد بلغت ذروتها عندما وصل عبد الحميد باشا الدروبي ـ أغنى رجل في حمص ـ بصحبة القاضي محمد سعيد الخاني. ولم أستطع أن أعير حديثهما المهذب والعذب ما يستحق من الاهتمام؛ بسبب الجمع المهتاج الذي كان يحيط بنا من كل جانب، ولكني رددت دعوتهما بعد ساعة، فذهبت إلى بيت الباشا الجديد الذي بناه في مدخل البلدة، وقد تبعني إلى هناك ما لا يقل عن ثلاثمئة شخص، ولاشك أنني تنفست الصعداء عندما أغلق الباب في وجه مرافقيّ من العامة، وجلستُ في الإيوان الرطب الهادئ.

٩١ ـ رأس العين ـ بعلبك

وقال عبد الحميد: «أرجو الله أن لا يكون العامة قد ضايقوا سعادتك؛ لأنه إذا حصل ذلك فإننا يمكن أن نستدعي فصيلاً من الجنود». وتمتمتُ بصمت من نصف قلبي رافضة عرضه، مع أنني كنت سأشعر بالسعادة أن أرى

هؤلاء الأطفال الصغار يرمون بوابل من رصاص البنادق. وأضاف الباشا متأملاً: «لقد أعطى إمبراطور ألمانيا ـ عندما زار دمشق ـ أمراً بأن لا يُمنع أحد من المواطنين من المجيء والنظر إليه».

ورأيت من خلال هذا المثال الجليل الذي ذكره أمامي أن عليّ أن أتحمل ضريبة العظمة والغربة بدون شكوى.

وتحول الحديث نحو المعتقدات الدينية، وبدأته بالسؤال عن النصيرية، وزم القاضي شفتيه وأجاب: «ليسوا أناساً جيدين، بعضهم يعبد علياً، وبعضهم يعبد الشمس، وهم يعتقدون أن الإنسان عندما يموت فإن روحه تذهب إلى شخص آخر، بل حتى إلى حيوان، كما هو الحال في معتقدات الهنود والصينيين».

قلت: «لقد سمعت قصة عن رجل كان يملك كرماً من العنب، ولما مات ترك الكرم لابنه، واشتغل الابن في الكرم حتى جاء موسم القطاف، ونضج العنب، وأخذ ذئب يتردد على الكرم كل مساء ويأكل من العنب، وحاول الابن أن يصطاده عدة مرات، ولكنه كان يعود كل مساء، وفي أحد الأمسيات صرخ الذئب محتجاً: «ألا يحق لي أن آكل من عنب الكرم الذي غرسته؟» واندهش الابن وقال: «ولكن من أنت؟» فأجاب الذئب: «أنا أبوك»، فأجاب الابن: «إذا كنت فعلاً أبي فأين خبّأت المنجل فإنني لم أجده منذ فارقتْ روحك جسدك». وعند ذلك أخذه الذئب إلى المكان الذي كان المنجل مخبأ فيه، فصدّق الولد وأيقن أن الذئب هو والده[1].

(١) لقد كانت هذه الخرافات وغيرها منتشرة كثيراً في مطلع القرن العشرين، وهي مما يتناقله العوام (المترجم).

٩٢ ـ شجر الأرز في لبنان

ورفض القاضي الشاهد قائلاً: «إن القصة كاذبة بدون شك». وسألته بعد ذلك فيما إذا كان يعرف شيئاً عن الطائفة البهائية، فأجاب:

«بالنسبة للفرقة البهائية وأمثالها من الفرق فأنتِ تعلمين يا صاحبة الفخامة أن النبي عليه السلام قال بأن هناك اثنتين وسبعين فرقة ضالة، ولا يوجد إلا فرقة واحدة صحيحة، وأنا أستطيع أن أدلك على خمسين فرقة دينية من أصل الاثنتين والسبعين في بلادنا».

وأجبت: إن الرسل وحدهم يستطيعون أن يميزوا بين الكاذب والصحيح، ونحن في أوربا حيث لا يوجد من يساعدنا في هذا المجال نجد الأمر صعباً جداً.

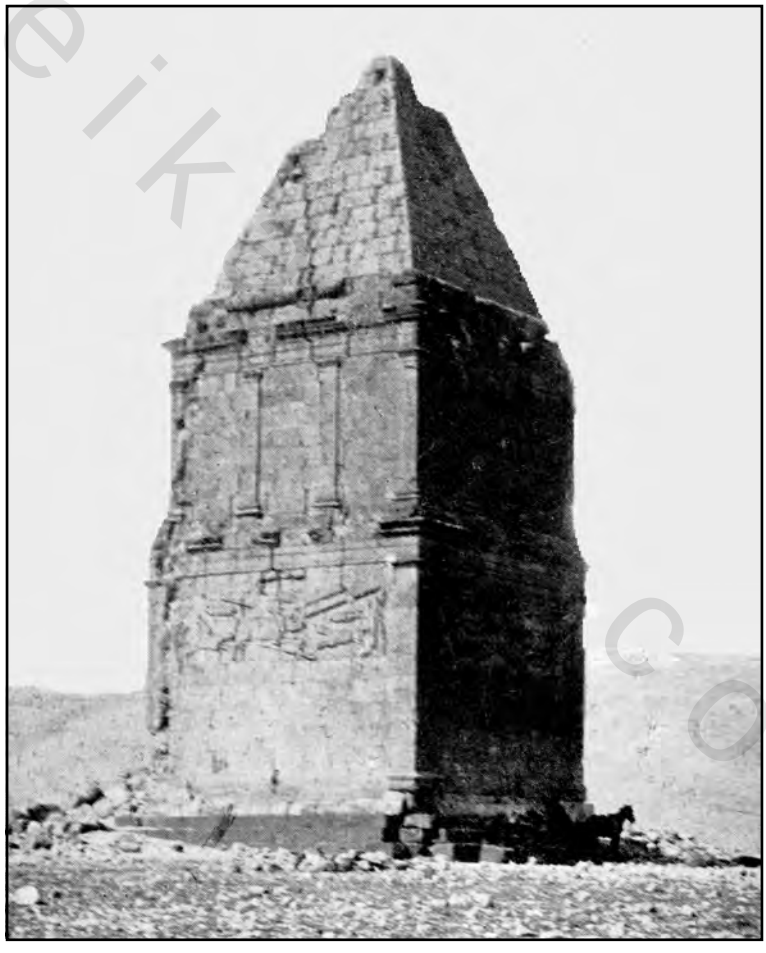

٩٣ ـ قاموع هرمول

٩٤ ـ التنزه في عطلة شرقية

قال القاضي: «في أوربا سمعت أن أنبياءكم هم العلماء».

فأجبت: «ولكنهم أجابوا وقالوا: إنهم لا يعرفون شيئاً، لقد اكتشفت عيونهم النجوم، ولكنهم لم يستطيعوا أن يفسروا لنا كلمة اللانهاية.»

قال القاضي: «إذا كنت تتحدثين عن نهاية السماء فنحن نعتقد أن هناك سبع سماوات».

قلت: «وماذا بعد السماء السابعة؟».

قال: «ألا تعلمين فخامتك أن العدد الأول هو بداية كل شيء؟»، ثم تابع: «وعندما تخبريني ماذا يأتي قبل الأول فسوف أخبرك ماذا يأتي بعد السماء السابعة».

وضحك الباشا، وقال متسائلاً فيما إذا كان القاضي قد أنهى مناقشته وأنه يريد في حال الإيجاب أن يسألني ما رأي الأوربيين الحالي بقضية قراءة الأفكار.

٩٥ ـ شارع في حمص

قال: «لأنه قد فُقِدَ لي منذ شهر خاتم ذهبي ثمين، ولم أستطع معرفة اللص، وسمع بالموضوع أحد الأفندية من أصدقائي، فقال: إنه يعرف رجلاً في لبنان ماهراً في مثل هذه الحالات، قلت: «اعمل معي معروفًا واجلبه لي». وأتى الرجل، وبحث في أرجاء حمص حتى وجد امرأة قد أُعطيت القدرة على التنبؤ، وعمل مترجماً لأفكارها فقالت: إن صفة اللص كذا وكذا، وإنه قد أخذ الخاتم إلى بيته، وذهبنا إلى البيت المعين وفتشنا فيه ووجدنا الخاتم، هذه تجربتي وقد حدَثت الحادثة أمام عيني».

وأجبتُ: «إن قارئي الأفكار أو المنجمين في لبنان يجنون أموالاً من موهبتهم أكثر مما يجني أي منجم في لندن». فأجاب الباشا متأملاً: «ربما كانت المرأة التي أرشدت إلى السارق قد غضبت منه لسبب ما فدلّت على منزله، الله وحده يعلم، المجد لاسمه». وغادرنا بعد ذلك بيت الباشا.

عندما عدت إلى خيمتي وجدت على منضدتي بطاقة زيارة عليها اسم وعنوان: «حنا خباز. كاهن الكنيسة البروتستانتية في حمص»، وقد كُتبتْ تحت هذا النقش الرسالة التالية: «يا سيدة.. أنا وزوجتي جاهزون لتقديم أي خدمة تحتاجينها في خدمة المسيح والإنسانية، ونحن نجد أن من الواجب علينا أن نزورك إذا تلطفت وقبلت ذلك، أنا خادمك المطيع».

وأرسلتُ لهم أنني أقبل زيارتهم بكل امتنان إذا جاؤوا فوراً، وقد جاؤوا قبيل غياب الشمس، شخصان لطيفان جداً، تواقان لأداء أي خدمة ولاستضافتي، الأمر الذي لم يكن باستطاعتي الإفادة منه، وقد كان أسفي ليس كبيراً؛ لأن الباشا والقاضي كانا صحبة طيبة لعصر ذلك اليوم. وأنا الآن عندما أنظر إلى الخلف إلى زيارتي المضطربة لحمص، وللساعة التي قضيتها مع هذين السيدين اللطيفين الكريمي المحتد تقف مثل ذكرى مأوى لجأت إليه في وسط عاصفة هوجاء.